مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 13 / العـــدد: 03 (2023)، ص 129 - 142

مهارة تحليل النصوص التراثية
– مدخل منهجي بيداغوجي–

The Skill Of Analyzing Religious Texts
- Methodological Pedagogical Entrance -

د. أحمد ذيب*
جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة (الجزائر)
Ahmed25dib@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/06/16 تاريخ القبول: 2022/10/21

ملخص:

كثيرا ما تتجه ملاحظات لجان المناقشة إلى انتقاد اقتباسات الطلاب وتفهّمهم لها، سيما أنَّ أغلب الدراسات الإسلامية ذات طبيعة نصّية تعتمد النقل والاقتباس.

وتهدف هذه الدراسة إلى تذليل صعوبات تحليل النّصوص التراثية، والإرشاد إلى ما يضمن حسن الاستفادة منها، تفاديًا للاختلالات الواقعة في هذه المرحلة، كالاستئسار، والانتحال، والتجنّي..

كلمات مفتاحية: منهجية– تحليل– النصوص–التراث–الاقتباس.

Summary

Students of Sharia law are often criticized for error in analyzing texts Especially if we know that most Islamic studies depend on transmission and quotation

This study aims to explain the methodological steps that help in analyzing religious texts in a correct way

Key words: Methodology, Analysis, And religious texts. quotation

.....

* د. أحمد ذيب.

1- مقدمة:

من الواضح أنَّ النصوص الدينية الإسلامية هي من أكثر النصوص التي استقطبت عناية الشراح منذ قرون متطاولة، من غير أن يَكِلَّ لهم جهد، أو يفتر لهم حماس، ولم يكن قط في الأمم السَّابقة من انتهى إلى حدّ هذه الأمة من شرح نصوصها الدينيّة وخدمتها بالبيان والتفسير؛ فحضارة هذه الأمة هي حضارة «نص».

ويُلاحظ أنَّ جميع المحاولات العبثية التي وجّهها الحداثيون تجاه العلوم الإسلامية ارتطمت في صخرة النّص الديني؛ فتحطّمت نِصَالُها وانفرطت حلقاتها.

وعلى أعتاب النصوص الدينية انفجرت المتون العلمية وفَاضَ عبابُها، فَأَشْرَكَنَا العلماءُ فيما أدركوا من علومها، وخلّدوا لنا ما استخلصوه منها، فلولا «ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخَلَّدَتْ من عجيب حكمتها، ودَوَّنَتْ من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كلّ مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لما حسن حظّنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة. ولو لجأنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا، وتشاهده نفوسنا، لقلّت المعرفة، وسقطت الهمة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيمًا، والخاطر فاسدًا، وَلَكَلَّ الحد وَتَبَلَّدَ العقل» [1].

ويُضيف الجاحظ (ت255هـ) في موضع آخر: ولولا الكتب المدوّنة والأخبار المُخَلَّدَة، والحِكم المخطوطة .. لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للنَّاسِ مفزع إلى موضع استذكار. ولو تم ذلك لحرمنا أكثر النفع » [2].

وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ الإفادة من هذه الثروة النصيّة متوقف أساسًا على القدرة على تحليلها وردها إلى أصولها، فالنَّصُ التراثي – كما هو معلوم – ليس مجرد كلمات منتظمة، ولا ألفاظ مرتبة، بل هو نسيج من العلاقات المتشعّبة، والبُنى المعقّدة.

هذا، وقد جعل الزركشي (ت794هـ) إتقان مهارة التحليل أحد شروط اكتساب الملكة العلمية، ونَصُّ عبارته: « إنَّما تصير للفقيه ملكة الاحتجاج واستنباط المسائل أن يرتاض في أقوال العلماء وما أتوا به في كتبهم. وربما أغناه ذلك عن العناء في مسائل كثيرة وإنما ينتفع بذلك إذا تمكّن من معرفة الصّحيح من تلك الأقوال من فاسدها. وممّا يعينه على ذلك أن **تكون له قوّة على تحليل ما في الكتاب ورده إلى الحجج** » [3].

وإنَّ خطورة القول في النّصوص الدّينية وعظيم غَرَرِه ممّا يُوجب نهجًا لاحبًا ومهابةً شديدةً، « فما هي إلا أعراضٌ تُنتهك، وأجسام تُنتهك، وأعمالٌ يُتعب لها وينصب، وأموالٌ يثبت ملكها ويسلب، ودماءٌ تعصم وتسفح، وأبضاع تُحرّم وتُنكح »[4].

وعلى ضوء ذلك تعنُّ للباحث جملة من الأسئلة حول حقيقة عملية التحليل، وبيان طرقها وكيفيتها:

- فما المراد بتحليل النصوص التراثية أولاً؟
- وماهي روافد التحليل المنهجي ثانيًا؟
- وماهي أهم الآليات المساعدة على تحليل منهجيّ للنصوص التراثية ثالثًا؟

فهذه هي الأسئلة التي يتوكأ عليها المقال بيانًا وإيضاحًا.

2- مدخل مفاهيمي:

2-1- معنى التحليل:

التحليل في اللغة: التفكيك وإرجاع الشيء إلى عناصره. وفي معجم المقاييس: « الْحَاءُ وَاللَّامُ لَهُ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ وَمَسَائِلُ، وَأَصْلُهَا كُلُّهَا عِنْدِي فَتْحُ الشَّيْءِ، لَا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ» [5]..

ولعلّ أفضل ما يمكن أن يُقَرّب مفهوم التحليل، هو التمثيل بأشهر أدوات التحليل وأكثرها تداولاً في مختلف العلوم الطبيعية، وهي المعاينة المخبرية التي تعتمد على الملاحظة الحسية، وأشهر مصاديقها التحليل بالتفاعلات الكيميائية والتحليل بالرؤية المجهرية.

وبالقياس على هذه الأداة ونظيراتها المستعملة في العلوم الاجتماعية، نستطيع أن نتعرف على أهم خصائص التحليل، وهي السير من الكلّ إلى أجزائه [6].

وأمَّا في السياق الاصطلاحي فهو إرجاع ظاهرة مركبة إلى أبسط عناصرها وأجزائها، بهدف معرفة طبيعتها.

فالتحليل ليس مجرد شرح استعادي يكرّره الدَّارِسُ بطريقة مغايرة، وإنَّما هو تظهير للكيفية التي تَخَلَّقَ بها النَّصُ.

أو بعبارة أخرى: تفكيك النص المقروء بغرض تحويله إلى مُدْرَك واضح ومفيد.

- فقولنا: « مُدْرَك» هو قيدٌ أوّل لإفادة ثمرة التحليل وغرضه، وهو تحويل المعلومات إلى معرفة مُدْرَكَة في ذهن القارئ.

- وقولنا: « واضح » **قيدٌ ثانٍ لبيان أحد شروط المُدْرَكات التي ترشحها عملية تحليل النّصوص، وهي وضوحها في ذهن القارئ.**

- وقولنا: « مفيد » **قيدٌ ثالثٌ لإفادة الشرط الثاني من شروط مدركات التحليل، وهي أن تكون تلك المستخلصات مفيدة متعدّية النفع، يمكن توظيفها في إنتاج معرفة راهنة.**

ونخلص من هذا وما قبله: أنَّ تحليل النّصوص التراثية هو عبارة عن نشاط فكري يَتَغَيَّا إعادة بناء النّص التراثي بناءً علميًا يخدم أغراض الذَّاتِ الباحثة (القارئة) ومقاصدها.

2-2- مفهوم النَّص التراثي:

(النَّصُ): النُّونُ وَالصَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى رَفْعٍ وَارْتِفَاعٍ وَانْتِهَاءٍ فِي الشَّيْءِ، ومنه قولهم: نَصَّ الحديث إلى فلان: رفعه إليه [7].

وَنَصُّ كل شيء: منتهاه. وفي حديث علي عليه السلام: « إذا بلغ النساء نص الحقاق»، أي إذا بلغن غاية الصغر وصرن في حد البلوغ. ونصّصت الرجل: استقصيت مسألته عن الشيء حتى تستخرج ما عنده. وهو القياس، لأنك تبتغي بلوغ النهاية[8].

أما في السياق الاصطلاحي، فقد تعدّدت الآراء في تعريف النَّص، ليعكس كل تعريف وجهة نظر صاحبه، ومنطلقاته المعرفية والفكرية التي يصدر عنها.

وأما المقصود بالنّص التراثي في هذه الدراسة: هو نسيج من الألفاظ والعبارات التي صاغها العلماء القدامى في مساقٍ واحدٍ لتعالج أحد موضوعات المعرفة الإسلامية.

3- روافد التحليل المنهجي ودعائمه:

شكلت كتب الشروح الدينية بمختلف تخصّصاتها (التفسيرية والفقهية والأصولية والحديثية) رافدًا مُهِمًّا لاكتساب مهارة التحليل طيلة قرون متطاولة، ومع أنَّ هذه النماذج المتكاثرة نجحت في المستوى الأول من التحليل (التفكيك) إلا أنها – في الغالب- لم تتقدّم كثيرًا في الجانب المتعلّق بالتركيب والاستنباط.

وفيما يلي تظهيرٌ لأهم موارد التحليل وروافده:

3-1- الثقافة النَّصية:

والمقصود بالثقافة النّصية الإلمام الكافي بنصوص الكتاب والسنة وإدامة النّظر في متونهما، وقد سبق البيان أنَّ المعرفة الإسلامية تنبني أساسًا على قاعدة النَّص الشرعي وتتصل بمادته.

فمن أكثر التعرّض لنصوص الوحيين تيسّرت له أدوات التحليل ولانت له أسبابه، وتأهّل غاية التأهّل للإفادة من مطالعة النصوص التراثية.

وفي المقابل، من ضعف زاده من نصوص الوحيين ظهر منه التقصير في تحليل النصوص، والعجز عن تأدية واجب الفقه فيها.

3-2- الثقافة اللّغوية:

إنَّ معرفة اللغة العربية فَرَشٌ ضَرُوريٌّ لا مَعْدَى عنه في التعامل مع النصوص التراثية، فالشريعة عربية، ونصوص التراث عربية كذلك، و« إنَّما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها »[9].

وعليه، فإنه يتعّين على الدَّارِس معرفة اللّغة وأساليبها على وجه يسهل به فهم الخطابات التراثية، فهي أداة التحليل، ومفتاح التفقّه في النّصوص.

ونعني بهذه المعرفة الإحاطة بما يتوقف عليه فهم كلام المؤلفين وعاداتهم في الاستعمال والمخاطبة، على نحو ما يتحقّق به التمييز بين صريح الكلام وظاهره، ومجمله وحقيقته، ومجازه وفحواه، ومنطوقه ومفهومه، ومطلقه ومقيّده..

كما تشمل تمييز دلالات الألفاظ؛ من مطابقة وتضمين والتزام واقتضاء وإشارة وتنبيه وإيماء مفرد ونحو ذلك..

3-3- الثقافة التخصّصية:

من الواضح أنه كلّما اغتنتْ معارف القارئ بموضوع الكتاب كلّما كان أحظى بالتفاعل مع نصوصه، وأسعد باكتشاف أسراره ومغاليبه.

وإنما يتقوى هذا الجانب لمن بحث البحث الشديد وأدام النَّظر في كتب المحققين من أهل ذلك الفن.

3-4- الثقافة المصطلحية:

لا يخفى على الدَّارسين منزلة المصطلحات في عمليتي الفهم والتفهيم؛ فمعرفتها من ضرورات التخاطب ولوازمه؛ فلا يتم تحقيق النَّظر في النصوص لمن لا يكون مستوفيًا لمعاني المصطلحات المتداولة، قائمًا على فهمها واستيعابها.

إنَّ الطريق الآمن لفهم مدلولات النّصوص الشرعية والتراثية على حد سواء يتوقف أساسًا على معرفة الاصطلاحات؛ لأنَّ مَدَار الأمر -كما يقول الجاحظ (ت255هـ)- على « البيان والتبيين » [10].

وقد أَكَدَّ أبو اسحاق الشاطبي (ت790هـ) أنَّ مفتاح أخذ العلم من الكتب هو معرفة اصطلاحات أهله، وهذا هو معنى كلمة « المفاتيح » الواردة في قول من قال: كان العلم في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، **ومفاتحه** بأيدي الرجال[11].

وكان من وصية السيوطي (ت911هـ) لطالب العلم: « لا بدّ أن يكون بمصطلحات أهل كلّ فن خبيرًا، وبمواضعات كل طبقة من العلماء بصيرًا؛ ليُحيط به إحاطة أولية تكون له عَوْنًا على التحصيل، ويطلع على مقاصدهم إجمالاً قبل التفصيل، حتى إذا أراد استحصان مسائلها، وأحكامها، والوقوف على جميع أنواعها وأقسامها، سهُل عليه ما يُريده، وحصل به إتقانه وتسديده » [12].

ويمكن إجمال أثر الثقافة المصطلحية في تحليل النصوص في المناحي الآتية:

- تعميق فهم النّصوص التراثية، فالمصطلحات هي لغة التفاهم بين العلماء، وهي « للمعاني أَزَمَّة وعليها أدلة وإليها مُوصلة، وعلى المراد منها مُحَصِّلَة » [13].

- الوقوف على التطوّر الدلالي للمصطلح والتمييز بين اصطلاحات المتقدمين واصطلاحات المتأخرين.

- تمييز الواضع، فقد يكون الوضع باللّغة، أو بالشرع، أو بالعرف (العام أو الخاص).

- التقليل من دائرة الخلافيات، وتضييق مسالك الاحتمالات، فمن أهم أسباب اتساع مَسَاوف الخُلْف بين المتنازعين: الاختلاف في المفاهيم أو الجهل بحقائقها، ولذا كان التَبَصُّر بحقائق الأشياء والوعي بمفاهيمها شرط لازم لمن رامَ ترشيد الخلاف وتنظيمه، ومن هنا قيل : « إذا اختلفتم في الحقائق فَحَكِّمُوا الحدود » [14].

3-5- الثقافة المنهجية:

هناك إجماع من المتخصّصين على أنَّ اتساع ثقافة القارئ لها يَدٌ فاعلة في توسيع مداركه وتكثير مستخلصاته من النصوص التراثية، فالعلم رَحِمٌ متصلٌ بعضه ببعض.

وإذا ما علمنا أنَّ العلوم الإسلامية – نظرًا لارتباطها بأفعال المكلفين- هي من أسرع العلوم إلى التطوّر والتجدّد كان ذلك دافعًا إلى تطعيمها بمكتسبات العلوم الإنسانية والطبيعية؛ فلكم « يخفى على الفقيه والحاكم الحق في المسائل الكثيرة بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة» (15).

هذا، وقد أثبتت الدراسات المعاصرة في مناهج العلوم، أنَّ التجديد في علم من العلوم أكثر ما يكون عند تلاقح حقائق هذا العلم بحقائق العلوم الأخرى التي لها صلة بموضوع هذا العلم، فقد صدر عام 1991م، كتاب بعنوان «الإبداع والابتكار في العلوم الإنسانية: الهامشية الخلاقة» وخلاصة ما انتهى إليه أنَّ ظاهرة الابتكار والإبداع والتجديد في التنظير والمنهجية في العلوم الاجتماعية كثيرًا ما تبرز عند أولئك الذين تجاوزوا تخصّصاتهم الأصلية واحتكوا بتخصّصات أخرى داعمة (16).

وفي وسعنا القول: إنَّ طبيعة النَّصِ المدروس هي التي تحدّد نوع المقاربة اللاَّزِمَة، وبالإمكان التمثيل بموضوع «شرب المخدرات»، ونعتبره الموضوع الذي نريد تفهّمه:

فإننا حينما نبحث عن الحكم الشرعي نظرنا في شروط التكليف وموانعه.

أما إذا تحدّثنا عن الأسباب الكامنة وراء اجتراح هذه الفعلة، كان البحث سيكولوجيا أو سوسيولوجيا، وهنا يتعين البحث في سيرة هذا الشخص وواقعه، هل هو من أسرة مفككة؟ هل يشعر بأنه مكروه؟ هل يريد الانتقام من نفسه أم من مجتمعه؟

أما إذا بحثنا عن الآثار الصحية المترتبة على شرب المخدرات كان البحث فيزيولوجيا طبيا، وهكذا..

4- أنواع التحليل ومستوياته (مناهج التحليل):

لفهم حركة الفكر في تحليل النصوص التراثية يحسن التطرق إلى أنواع التحليل، ولنمثل بذلك بـ « جهاز كمبوتر»، فإذا كان المطلوب منا هو تحليل جميع الأجزاء المكوّنة له، وهي: شاشة، ولوحة كتابة، وفأرة، ووحدة المعالجة المركزية، والذاكرة الرئيسية، ومولد الطاقة، والقرص الصلب.

بعدئذ لا بد أن يكون في استطاعتنا تفسير كيفية ارتباط هذه القطع بعضها ببعض في شكل كلي يتمثل في جهاز كمبيوتر.

يمكن إذن للتحليل هنا أن يُعْرَض من عدة زوايا(17):

- تحليل وصفي: يهدف إلى عرض مفصّل لمكوّناته.
- تحليل تفسيري: تحليل يهدف إلى وضع عناصر الموضوع في علاقة ببعضها البعض.
- تحليل فهمي: تحليل يهدف إلى فهم الواقع من خلال ما يمثّله هذا الجهاز في واقع النّاس وحياتهم.

– تحليل تصنيفي: يهدف إلى جمع الظواهر أو عناصر الواقع حسب مقاييس متنوعة.

وكخلاصة لهذه الأنواع، لو افترضنا أنَّ بحثًا حول «الخصائص الاستدلالية » لمدرسة فقهية معينة:

فوصفها، يعني: تجلية اختياراتها وخصائصها..

وتفسيرها، يعني وضعها في علاقة بالخصائص الأخرى للمدرسة ذاتها.

وفهمها، يعني الاعتبار بالمبرّرات الممنوحة لهذه الخصائص من طرف أعلام هذه المدرسة.

أما تصنيفها، يعني وضعها في إطار علاقتها بنماذج أخرى.

فالتحليل يدل على القيام بعمليات تراتيبية تشتمل على: الوصف، التفسير، التصنيف (التفهيم)، الاستخلاص (اللتوظيف).

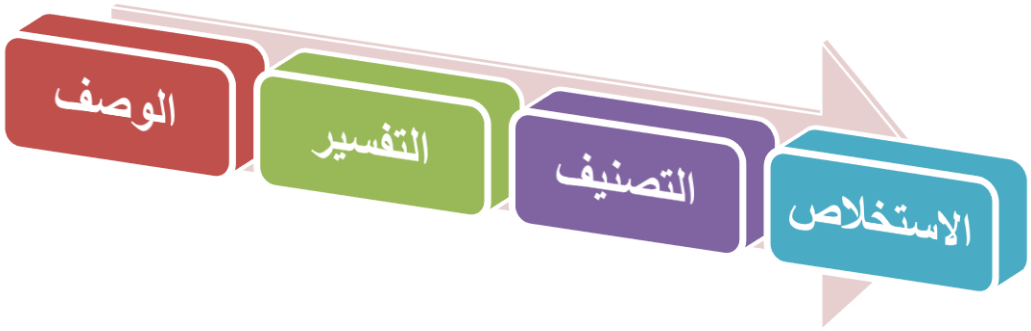

فهذه هي الأنحاء المنهجية التي يقصدها التحليل ويعتمدها. أمّا الخطوات الإجرائية فيمكن بيانها في العنصر الموالي.

5– مراحل تحليل النص التراثي وسيرورته (الخطوات الإجرائية):

إذا كانت الفقرات السَّابقة تتحدّث عن مناهج التحليل بصفة جُملية، فإنَّ هذا العنصر من البحث يستهدف بيان أهم الخطوات الإجرائية المتبعة في تحليل نص تراثي.

5–1– شرح الألفاظ (التحليل اللغوي):

كثيرًا ما تُشَكّل الألفاظ الغامضة عقبة كأداء أمام تلقي النصوص التراثية، ويكفي أن نعلم أنَّ القاضي عياض اليحصبي (ت544هـ) شرح ما يُناهز ستمائة لفظة في السفر الأول فقط من شرح المدونة [18].

ومن هنا، فإنَّ أوّل ما يستهل به القارئ عملية التحليل هو إيضاح الألفاظ المشكلة وإظهار المضمرات المهملة، وذلك من خلال الرجوع إلى القاموسين الشرعي (تغليب التعاريف الشرعية على الاصطلحات الصناعية الحادثة) واللغوي.

وممّا يقوّي هذه الملكة إدامة النَّظر في كتب الغريب: غريب الحديث لأبي عبيد، وغريب الحديث لابن قتيبة، وغريب الخطابي، ومشارق الأنوار.

كما يمكن اعتبار الشروحات الفقهية من أهم مظان التمرن على هذه الخطوة؛ وذلك لاعتياد الفقهاء على تقطيع المتون الفقهية كلمة كلمة وحرفًا بحرفٍ.

ويجدر التنبيه إلى أنه لا يحسن بالدَّارس أن يغرق في تتبع الألفاظ، فإنَّ ذلك من شأنه أن يُضعف آلة الاستنباط والنقد، وقد كان من وصيّة ابن علاق المالكي لأحد طلبته: « إن تتبعت الألفاظ في الألفاظ تموت» [19]؛ ولأنَّ الألفاظ لم تُقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضح بأيّ طريق كان عمل بمقتضاه، سواء كان بإشارة، أو كتابة، أو بإيماءة أو دلالة عقلية، أو قرينة حالية، أو عادة له مطردة لا يخل بها.. [20]

5-2- التحديد والتفريع:

بعد تجلية الألفاظ والمصطلحات الغامضة في النَّصِ، ينتقل الدَّارِس إلى تقطيع النَّصِ إلى أفكار جزئية، كل فكرة تدلي بسبب أو نسب إلى موضوع الكتاب.

ويُعبّر الجرجاني عن هذا المعنى بقوله « واعلمْ أنك لا تَشْفي الغُلَّة ولا تنْتهي إلى ثلجِ اليقينِ، حتى تتجاوزَ حدَّ العلمِ بالشيء مجْملاً، إلى العِلْم به مفصَّلاً، وحتَّى لا يُقْنِعَك إلاّ النَّظَرُ في زواياهُ، والتَّغلغلُ في مكامنه، وحتى تكون كمَنْ تتَبَّع الماءَ حتى عرَفَ منْبَعهَ، وانتهى في البحثِ عن جوهرِ العُود الذي يُصْنَع فيه إلى أنْ يعْرِفَ منْبِتَه، ومَجرى عُروقِ الشجرِ، الذي هو منه »[21].

وتشمل هذه الأفكار على : اصطلاح، أو تفريق، أو تقسيم، أو حكم، أو تخريج، أو اعتراض، أو تأصيل، أو تفريع، أو تعليل، أو توجيه.

ومن لطيف ما يذكر في هذا السياق: طريقة ابن العربي في مختلف كتبه- المسالك والقبس والعارضة- في وضع عناوين جزئية تعبر بدقة عن مضمون الفكرة المستخلصة، فتجده يقول: وصْلٌ، إلحاق، كشف، إيضاح، تفصيل، استلحاق، تفريع، تكملة، تنبيه على مقصد، استدراك، تتميم، تحقيق لغوي، تحقيق شرعي، تنبيه على وهم، تعليق، تفسير، تحديد، ترجمة، تأسيس، تأديب..

5-3- الترتيب والتصنيف:

بعد استخلاص الأفكار الجزئية للنَّصِ المقروء تجيء مرحلة النضد والترتيب، فيُوضع الشبيه إزاء شبيهه والنظير قبالة نظيره.

وتُرتب أفكار النَّصِ بحسب الأهمية والجدى، فما قوي منها في الاعتبار تقدّمت رتبته، وما ضعف منها أُخِر، ومعيار الترتيب: هو مدى الارتباط بفكرة الكتاب وغرضه.

وقد اشار ابن القاص الشافعي(ت335هـ) إلى هذه المرحلة بقوله: « من وضح له ذلك حتى نزَّل وجوه الاحتمال منازلها ورتّب المشكلات مراتبها، فهو حكيم »[22].

والغرض من هذه المرحلة هو تمهيد الوصول إلى استخلاص الفكرة الرئيسة النَّاظمة لمباحث الكتاب، وهي الخطوة الموالية.

5-4- التركيب والاستخلاص (إدراك الوحدة الفكرية للنص):

تندرج هذه الخطوة ضمن مستوى التركيب، ومعناه: تحصيل الكلّ انطلاقًا من أجزائه، فإذا استخدمت فيه عناصر النَّصِ كان « تركيبا اعتباريا»، وأما إذا توسلت به إلى الاهتداء إلى أفكار جديدة كان « تركيبًا حقيقيًا».

وجليٌّ أنَّ تفكيك النص إلى وحدات جزئية معبّرة يتوقف على الإدراك السليم لبنيته العليا، إذ لا يمكن القبض على معانيه البعيدة إلا من خلال الرؤية الشمولية لجميع السياقات الداخلية والخارجية، وحركتها، ودرجة تكثيفها وتوازنها، وعلاقات بعضها ببعضها الآخر.

وواهمٌ من يظن أن تحليل النص لا يعني إلا استخراج المعلومات في ذاتها مبتورةً عن موضوعها الكلّي، معزولةً عن إطارها المعرفي، فلا أهميَّة لتلك المعلومات ما لم تتضح علاقتها العلميَّة بكُلِّيَّتِها ونمطِها المتكرِّ.

فمن أراد الكشف – مثلاً- عن بنية مدينة ما فإنه لا يقنع بإحصاء الأشخاص القاطنين بها، ولا الحجرات التي يسكنوننها، وإنما يهتم بوحدة الحي وموقعه ونوعية مبانيه وسكانه وخدماته وشبكات اتصاله بغيره من المناطق ودرجة كثافته،وأنشطته الصناعية ونسيجه الاجتماعي وغير ذلك من الخواص الوظيفية المكوّنة لبنيته، عندئذ فقط يستطيع أن يصل إلى تحديد الأحياء وشخصياتها والمدن وهياكلها العمرانية [23].

5-5- التحقق والاستخلاص (التركيب الحقيقي):

ويتضمّن هذا المستوى: التأمّل في المعنى العام الذي يرشّحه النَّصُ المقروء، وتقليب النَّظر في مكامنه ومُخبآته، فالمعلومة التي نملكها هي – على حد قول « لوك » [24]– هي فقط تلك التي فَكَّرْنَا فيها، إذْ أنَّ التفكير هو الذي يجعلنا نملك ما نقرأ، والتحليل بلا تأمّل « كالأكل بلا هضم » [25].

بل لن أكون مبالغًا إذا ما ادعيت أنَّ المهمّة الأساسية للقارئ هي جعل ما يعنيه النَّص المقروء في الوقت الراهن أكثر مما كان يعنيه زمن تأليفه.

وفي هذا المستوى يكون القارئ قادرا على تجاوز المعلومات التي يرشحها النص المقروء، واستنتاج ما قد يترتب عليها من آثار واتجاهات، وكذلك استنتاج ما قد ينطوي عليه هذه المعلومات من تضمينات، شريطة أن يظل مهتجسا بإشكالية بحثه وأهدافه المسطرة.

6- نموذج تطبيقي:

حتى لا يكون البحث منتاطا بسماء التحليق النظري، فسأنتخب نَصًّا فقهيًا من المدونة الكبرى للإمام سحنون، لأجري عليه الخطوات السَّابقة.

النص	قال سحنون: قُلْتُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ: أَرَأَيْتَ إنْ قَالَ: زَوِّجْنِي **مَوْلَاتَك** وَأُزَوِّجُك **مَوْلَاتِي** وَلَا مَهْرَ بَيْنَهُمَا، أَهَذَا مِنْ **الشِّغَارِ** عِنْدَ مَالِكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إنْ قَالَ: زَوِّجْنِي ابْنَتَك بِمِائَةِ دِينَارٍ عَلَى أَنْ أُزَوِّجَك ابْنَتِي بِمِائَةِ دِينَارٍ قَالَ: سُئِلَ مَالِكٌ عَنْ رَجُلٍ قَالَ: زَوِّجْنِي ابْنَتَك بِخَمْسِينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ أُزَوِّجَك ابْنَتِي بِمِائَةِ دِينَارٍ **فَكَرِهَهُ** مَالِكٌ وَرَآهُ مِنْ وَجْهِ **الشِّغَارِ**. قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إنْ قُلْتُ لِرَجُلٍ زَوِّجْنِي **أَمَتَك** بِلَا مَهْرٍ وَأَنَا أُزَوِّجُك **أَمَتِي** بِلَا مَهْرٍ؟ قَالَ: قَالَ مَالِكٌ: **الشِّغَارُ بَيْنَ الْعَبِيدِ مِثْلُ الشِّغَارِ بَيْنَ الْأَحْرَارِ** وَأَرَى أَنْ **يُفْسَخَ** وَإِنْ دَخَلَ بِهَا، فَهَذَا يَدُلُّك عَلَى أَنَّ مَسْأَلَتَك شِغَارٌ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ قَالَ: زَوِّجْنِي أَمَتَك بِلَا مَهْرٍ عَلَى أَنْ أُزَوِّجَك أَمَتِي بِلَا مَهْرٍ، أَوْ قَالَ: زَوِّجْ عَبْدِي أَمَتَك بِلَا مَهْرٍ عَلَى أَنْ أُزَوِّجَ عَبْدَك أَمَتِي بِلَا مَهْرٍ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ سَوَاءٌ وَهُوَ شِغَارٌ كُلُّهُ. قُلْتُ: أَرَأَيْتَ نِكَاحَ الشِّغَارِ إذَا وَقَعَ فَدَخَلَا بِالنِّسَاءِ وَأَقَامَا مَعَهُمَا حَتَّى وَلَدَتَا أَوْلَادًا أَيَكُونُ ذَلِكَ جَائِزًا أَمْ يُفْسَخُ؟ قَالَ: قَالَ مَالِكٌ: يُفْسَخُ عَلَى كُلِّ حَالٍ قُلْتُ: وَإِنْ رَضِيَ النِّسَاءُ بِذَلِكَ فَهُوَ شِغَارٌ عِنْدَ مَالِكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ.
التحليل اللغوي	**يمكن رصد الكلمات الآتية:** – **الشغار**: أصله في اللغة : الرَّفْع، وذلك من قولهم: شغر الكلب برجله: إذا رفعها. ثم استعملوه فيما يشبهه كالنكاح بغير مهر. وقيل: سمي بذلك لخلوه من الصداق ورفعه عنه، من قولك: بلد شاغرة. وهو في الاصطلاح: مقابلة البضع بالبضع.

	– **المكروه**: حقيقة مصطلح الكراهة عند الأئمة المتقدمين – **مولاتك**: من ولاّك الشارع تزويجها.
التحديد والتفريع	**تضمنت هذا النص الحديث عن أربعة أفكار، وهي:** – التزويج دون تسمية الصداق، وهو من صور الشغار المحرّمة. – التزويج بالشغار مع تسمية المهر (100دينار مقابل 100دينار)، وهو من الشغار المحرّم كذلك. – تزويج العبيد (المماليك) بالشغار، وهل هو كالشغار بين الأحرار؟ – هل يجب فسخ أنكحة الشغار أم لا؟ وهل يكون الفراق فسخًا أم طلاقًا؟
الترتيب والصنيف	– حكم نكاح الشغار (وهو التحريم). – رصد صور نكاح الشغار. – تحديد علة تحريم الشغار.
التركيب والاستخلاص	سَمَّى الإسلام المهر نحلةً إبعادًا له عن أنواع الأعواض، إذ ليس الصداق عوضًا عن منافع المرأة، فإنَّ النكاح وَصْلٌ بين الرجل والمرأة قصد المعاشرة والمكارمة، وإيجاد آصرة عظيمة، وتبادل حقوق بين الزوجين، وتلك أغلى من أن يكون لها عوض مالي، ولو جعل لكان عوضها جزيلاً ومتجدّدًا بتجدّد المنافع، وامتداد أزمانها، شأن الأعواض كلّها، ولكنّ الله جعله هدية واجبة على الأزواج إكراما لزوجاتهم، وإنّما أوجبه الله لأنّه تقرّر أنّه الفارق بين النكاح وبين المخادنة والسفاح، إذ كان أصل النكاح في البشر اختصاص الرجل بامرأة تكون له دون غيره، فكان هذا الاختصاص ينال بالقوة، ثم اعتاض الناس عن القوة بذل الأثمان لأولياء النساء ببيعهم بناتهم ومولياتهم، ثم ارتقى التشريع وكمل عقد النكاح، وصارت المرأة حليلة الرجل شريكته في شؤونه وبقيت الصدقات أمارات على ذلك الاختصاص القديم تميز عقد النكاح عن بقية أنواع المعاشرة المذمومة شرعا وعادة، وكانت المعاشرة على غير وجه النكاح خالية عن بذل المال للأولياء إذ كانت تنشأ عن الحب أو الشهوة من الرجل للمرأة على انفراد وخفية من أهلها. يُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير. إذا تمهّد هذا، أمكن القول إن النكاح في الإسلام عقد مقدس يجب أن يُصان عن ذوي المصالح من المتشاغرين ونحوهم..

7- الخاتمة:

تبعا للوظيفة المنهجية للخاتمة فإننا سنعمد إلى أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وتتلخص فيما يأتي:

- عرف البحث النّص التراثي في هذه الدراسة: هو نسيج من الألفاظ والعبارات التي صاغها العلماء القدامى في مساقٍ واحدٍ لتعالج أحد موضوعات المعرفة الإسلامية.

- حدّد البحث عملية التحليل بأنها تفكيك النّص المقروء بغرض تحويله إلى مُدْرَك واضح ومفيد.

- من أهم ما استخلصه البحث لأنه وبالرغم من أنَّ كتب الشروح بمختلف تخصّصاتها (التفسيرية والفقهية والأصولية والحديثية) استطاعت أن تُقَدّم نفسها على أنها نموذج فريد من التفسير والبيان، إلا أنها لم تتقدّم كثيرًا في الجانب المتعلّق بالتركيب والاستنباط.

- رصد البحث جملة من الروافد المساعدة على التوفّق في تحليل النصوص التراثية، وهي: الثقافة النصية، والثقافة المنهجية، والثقافة التخصصية، والثقافة المصطلحية، والثقافة اللغوية.

- لفهم حركة الفكر في تحليل النصوص التراثية رصد البحث أربع مستويات منهجية، وهي: الوصف، والتفسير، التصنيف (التفهيم)، الاستخلاص (التوظيف).

- من أجل اختيار الخطوات المقترحة اختار البحث نموذجًا تطبيقيًا من مدونة تراثية، وهي المدونة الكبرى للإمام سحنون.

- إلى جانب المستويات المنهجية السَّابقة فقد اقترح البحث جملة من الخطوات الإجرائية (التفصيلية)، وهي التحليل اللغوي، والتحديد والتفريع، الترتيب والتصنيف،التركيب والاستخلاص،الاستثمار والتوظيف.

والحمد لله ربّ العالمين.

8- الهوامش:

(1) الجاحظ، كتاب الحيوان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ)، ج1، ص59.

(2) (م، ن)، ج1، ص37.

(3) الزركشي، البحر المحيط، (القاهرة: دار الكتبي، ط1، 1994)، ج8، ص266.

(4) ابن دقيق العيد، مقدمة شرح جامع الأمهات، عن تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ت: محمود الطناحي، (الرياض: دار هجر، ط2، 1413هـ)،ج9، ص232.

(5) أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام هارون، (بيروت: دار الفكر، ط1، 1979)، ج2، ص20.

(6) بن بديرة، منهجة العلوم الشرعية، (تونس: دار المتوسط، ط2، 2013)، ص29.

(7) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج5، ص365.

(8) (م، ن).

(9) محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، ت: أحمد شاكر، (القاهرة: مكتبة مصطفى الحلبي، ط1، 1940م)، ص52.

(10) الجاحظ، البيان والتبيين، (بيروت: مكتبة الهلال، 1423هـ)، ج1،ص34.

(11) يُنظر: الشاطبي، الموافقات، ت: مشهور آل سلمان، (الرياض، دار ابن عفان، 1997)،ج1، ص147.

(12) السيوطي، معجم مقاليد العلوم، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2004)، ص29.

(13) ابن جني، الخصائص، باب في إصلاح اللفظ، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ط4، د، ت)، ج1، ص313.

(14) القرافي، الفروق، (بيروت: عالم الكتب)، ج4، ص199.

(15) القرافي، الفروق، ج4، ص11، والذخيرة، (بيروت: دار الغرب، ط1، 1994)، ج5، ص502.

(16) الداودي، محمود، عوامل الذاتية لميلاد الفكر الريادي الخلدوني في ضوء علم الإبداع الحديث، التجديد، السنة الأولى، العدد الأول، رمضان 1417/يناير1997، ص72.

(17) موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، (الجزائر: دار القصبة، ط1، 2006)، ص423.

(18) مقدمة المحقق، التنبيهات المستنبطة، ج1، ص186.

(19) محمد المواق، التاج والإكليل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1994)،ج1، ص17.

(20) ابن القيم، إعلام الموقعين، ت: مشهور، (الرياض: دار ابن الجوزي، 1423هـ)، ج1، ص167.

(21) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت: محمود شاكر، (القاهرة: مطبعة المدني، ط3، 1992م)، ص260.

(22) أحمد ابن القاص: نصرة القولين، (دمشق، دار البيروتي، 2009)، ص 150.

(23) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، (بيروت: عالم المعرفة)، ص235، بتصرف.

(24) ونصُّ عبارته: « القراءة تزوّد عقولنا بمواد المعرفة قط، والتفكير هو الذي يجعلنا نملك ما نقرأ». يُنظر: محمد الأحمري، مذكرات قارئ، (بيروت: دار الخلود، ط1، 2014)، 149، وفهد الحمود، قراءة القراءة، ص198.

(25) من كلام بيرك، ينظر: كامل العسلي، مقتطفات في الكتب والقراءة، (عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، د،ت)، ص157.

9- لائحة المراجع:

- أحمد ابن القاص: نصرة القولين، (دمشق، دار البيروتي، 2009)
- أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام هارون، (بيروت: دار الفكر، ط1، 1979)
- بن بديرة، منهجة العلوم الشرعية، (تونس: دار المتوسط، ط2، 2013)، ص29.
- تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ت: محمود الطناحي، (الرياض: دار هجر، ط2، 1413هـ)
- الجاحظ، البيان والتبيين، (بيروت: مكتبة الهلال، 1423هـ)
  كتاب الحيوان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ)
- ابن جني، الخصائص، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ط4، د، ت)
- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت: محمود شاكر، (القاهرة: مطبعة المدني، ط3، 1992م)
- الذخيرة، (بيروت: دار الغرب، ط1، 1994)،

- الزركشي، البحر المحيط، (القاهرة: دار الكتبي، ط1، 1994)
- السيوطي، معجم مقاليد العلوم، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2004)
- الشاطبي، الموافقات، ت: مشهور آل سلمان، (الرياض، دار ابن عفان، 1997)
- القرافي، الفروق، (بيروت: عالم الكتب)
- ابن القيم، إعلام الموقعين، ت: مشهور، (الرياض: دار ابن الجوزي، 1423هـ)
- عياض، التنبيهات المستنبطة، مقدمة المحقق، (بيروت: دار ابن حزم)
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، (بيروت: عالم المعرفة)
- موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، (الجزائر: دار القصبة، ط1، 2006)
- محمد المواق، التاج والإكليل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1994)
- محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، ت: أحمد شاكر، (القاهرة: مكتبة مصطفى الحلبي، ط1، 1940م)
- محمد الأحمري، مذكرات قارئ، (بيروت: دار الخلود، ط1، 2014)
- كامل العسلي، مقتطفات في الكتب والقراءة، (عمان: جمعية عمال المطابع التعاونةي، د،ت)

المجلات والدوريات:

- الداودي، محمود، عوامل الذاتية لميلاد الفكر الريادي الخلدوني في ضوء علم الإبداع الحديث، التجديد، السنة الأولى، العدد الأول، رمضان 1417/يناير1997